المراكز المدنية من العصر البابلي القديم في منطقة الفرات الأوسط
(دراسة في الجغرافيا التاريخية للمنطقة)

الدكتور صباح جاسم الشكري
كلية ألآداب - جامعة بغداد

المقدمة:

منذ مطلع القرن الماضي شملت أعمال التنقيب ألآثاري العديد من المدن والمستوطنات التي يرجع تاريخها إلى العصر البابلي القديم في النصف الأول للألف الثاني قبل الميلاد والتي عرفت بفترة إيسن– لارسا (٢٠١٧– ١٧٦٣ ق.م.) وفترة سلالة بابل الأولى(١٨٩٤– ١٥٩٥ ق.م.).

وعلى الرغم مما كشفت عنه هذه التنقيبات من نتاج فكري ومضاهر حضارية شملت الحياة الدينية والمدنية في شتى مناحيهما , فإن الحفائر الأثرية في أي من المدن واألمستوطنات المكتشفة لم تزودنا بمخطط كامل يمكن أن نعده نموذجاً لمدينة من ألعصر ألبابلي القديم.

سؤال كهذا ولحسن ألحظ قد أجابت عليه ألتنقيبات الجارية خلال أوائل فترة الثمانينات من القرن الماضي في أحد مواقع الهضبة الغربية في حوض سد حديثة على الفرات الأوسط, ألا وهو موقع (خربة الدينية) الذي شكل أقصى المواقع الأثرية التي تم الكشف عنها في أعالي حوض السد على مسافة (٣٢) كيلو متراً شمال غرب (جزيرة عانه).. وهو يبعد

حالياً عن الشاطئ الغربي للفرات مسافة تقرب من ٢٠٠ متراً (١, أنظر: الخارطة ١ – ٢) .

وقبل التحدث عن الموقع المذكور لابد من تقديم عرض موجز عن منطقة الدراسة خلال فترة العصر البابلي القديم.. فقد تم الكشف في حوض سد حديثة عن عشرة مواقع أثرية بعضها مدن قياساً بمساحات مواضع الاستيطان هنا.. فإلى جانب جزيرة عانة الواقعة في وسط النهر, نجد ثلاثة مواقع تعد الأكبر والأكثر أهمية تقع على الجانب الغربي للفرات, وهي (خربة الدينية, العوسية, والشويمية), وباقي مواقع العصر البابلي القديم تقع على الجانب الشرقي للنهر وهي صغيرة وأقل أهمية من سابقاتها (٢) .

ظهر الإستيطان في جزيرة عانة ومواقع الحانب الغربي للنهرعلى الأقل منذ فترات عصر السلالات السومرية في الألف الثالث قبل الميلاد (عصر السلالات الثاني وعصر السلالات الثالث), حيث شهد النهر حركة ثقيلة لسير الزوارق وأكثر منها القوافل التي تحمل البضائع التحارية بين بلاد بابل وبين الخليج العربي وبينهما وبين مناطق شرقي البحر الأبيض المتوسط التي يبرز من بينها مدناً تأثرت كثيراً بالثقافة البابلية كمدن ماري (تل الحريري) و طرقه (تل أشاره) على الفرات كذلك (٣) .

في هذا البحث حددنا العصر البابلي القديم إطاراً زمنياً لدراسة مواقع أثرية في حوض سد حديثة وكذلك حوض سد البغدادي الكائن أسفل منه, بسبب الصلة بين البعض من مواقعهما جغرافياً وزمنياً.. فإن مدنا مهمة هنا إرتقت في موجوداتها إلى مستوى (مراكز مدنية) ولعبت أبرز دور تأريخي وحضاري شهدته منطقة الفرات الأوسط , إلاّ أنها غير محددة من قبل الآثاريين والباحثين بعد, رغم محالاتهم للتوصل إليها.. أما النصوص المكتشفة في المواقع المهمة هنا والتي ترجع إلى العصر المذكور كانت لنا خير عون في دراستنا .

الجغرافيا التاريخية لمنطقة الدراسة:

في محاولة للاقتراب من تحديد بعض المراكز المدنية في حوض سد حديثة, بل وعموم منطقة الهضبة الغربية على الفرات الأوسط, نجد أن من الضروري استخدام الدليل ألآثاري المتوفر من خلال أعمال التنقيب الجارية هنا مع الإفادة من السياق التاريخي عنها خلال العصر البابلي القديم تحديداً.

خربة الدينية : (الشكل ١)

يشكل موقع خربة الدينية آخر مواقع حوض سد حديثة بإتجاه سوريا , ويرجع أقدم إستيطان فيه إلى عصر السلالات, وهو يقع على نحو (٧٠) كيلومتراً شرق مدينة (ماري Mari /تل ألحريري) الكائنة على الفرات داخل الأراضي السورية.. وإذا كانت مدينة ماري قد لعبت دوراً مهماً في تأريخ منطقة الفرات الأوسط خلال العصر البابلي القديم والآشوري القديم فإن خربة الدينية قد وضحت أهميتها, ليس فقط من خلال النصوص التاريخية البابلية والآشورية, وإنما نتائج تنقيبات البعثة الآثارية الفرنسية المشاركة في مشروع حوض السد والتي ترأستها الأستاذة كريستينا كبنسكي... فالمدينة تعد الأولى في نظام تخطيطها من بين جميع المواقع المكتشفة، وربما الثانية في سعة رقعتها وتركز آثار العصر البابلي القديم فيها بعد مستوطن العوسية.. ترى الباحثة المذكورة أن التخطيط الحضري للمدينة (خربة الدينية) قد تم الكشف عنه في مدن عراقية قديمة أخرى اختفت بفعل البناء اللاحق فوقها.

وفي العصر الآشوري الحديث كانت المدينة جزءاً مهماً من النظام الدفاعي الآشوري ضد الهجمات القادمة من جهة الغرب , وتشير النصوص المكتشفة في المدافن الآشورية المحيطة بها أنها ترجع في تأريخها إلى فترة القرن (١١ ق. م.) (٤) .

أعمال التنقيب في خربة الدينية :

قامت البعثة الفرنسية المذكورة بأعمال التنقيب في خربة الدينية لخمسة مواسم عمل اعتباراً من ١٩٨٠– حتى عام ١٩٨٤, وكشفت عن أحد النصوص التي أفصحت عن الإسم التاريخي للمستوطن, وهو مدينة (خرادم /Haradum), المحطة التجارية المعروفة في النصوص التي ترجع الى العصر البابلي القديم.

تشير النصوص المكتشفة في ماري أنها كانت تتبع لهذه المملكة, وأن من أسس خرادم هم البابليون الذين خلفوا الملك حمورابي في الحكم , إلا أن الباحثة تشير أن الموقع كان ذا أهمية في السابق..

فالمدينة صغيرة في مساحتها , مقسمة الى ثمانية أحياء يضم كل منها عشر وحدات بنائية, و أنها أعدت وفق تخطيط وتنظيم دقيق (٥), فيها شوارع ضيقة مخصصة للمشاة والحيوانات, وأن صغر المدينة ومحدودية الاستيطان فيها لم يعطي مجالاً لاتساعها, لاسيما أنها محاطة بسور, لذا فأن اتساع الاستيطان بالمدينة ربما كان في خارج السور الذي تفصله عن الفرات أراضي زراعية ضيقة , هي الأخرى لم تسمح بالاتساع .

إن ضيق المدينة وتخطيطها المنظم يشير إلى أن كل فرد فيها وأن كل مبنىً بداخلها قد لعب دوراً في تأريخ السكن فيها, والذي دام مدة (١٠٠) عام (٦) .

أظهرت أعمال التنقيب أن المدينة قسمت بالتساوي إلى قسمين بواسطة شارع رئيس مستقيم يتحه من الشرق إلى الغرب , حيث يؤدي الشارع إلى بوابتها الوحيدة عند منتصف الضلع الغربي للسور.

يقطع الشارع المذكور خمسة شوارع فرعية مستقيمة, وهي تتجه من الشمال إلى الجنوب لتقسم المدينة إلى ثمانية حارات متساوية المساحات تضم مبانٍ عامة وأخرى سكنية.. فهي تضم المعبد ودار حاكم أو عمدة المدينة والمنطقة الصناعية(المشاغل) والبيوت السكنية(٧).

ومما تجدر الإشارة إليه أن تخطيط المدينة المنظم بهذا الشكل فد عرف لاحقاً بالتخطيط الشبكي أو رقعة الشطرنج ونسب من قبل المعنيين بالدراسات الكلاسيكية(الإغريقية- الرومانية) إلى المهندس الإغريقي هبوداموس, توفي نحو عام (٤٦٦ ق. م.) ومن بعده فتروفيوس مهندس أوكتافيوس أوغسطس مؤسس الإمبراطورية الرومانية(١٤ ق.م.– ٢٧ م.), هذا في الوقت الذي نشاهد وفق الدليل الآثاري المبيّن أنه يرجع في الأصل إلى العصر البابلي القديم .

في مركز المدينة, تم الكشف عن ساحة صغيرة محاطة بجدار واطئ, إلى جوارها جنوباً يقع المعبد وشمالاً القصر الرئيس (حاباسانو/ Habasanu), الذي عرف بدار عمدة المدينة (Rabianu). عثر على

القصر عند الجزء الشمالي لمركز المدينة وإلى حانبه غرباً يقع المعبد الذي يطل جداره الشمالي على الشارع الرئيس للمدينة , وفي منتصف هذا الشارع تقع البوابة الرئيسة للمدينة كما أشرنا سابقاً .

يقييم الباقون في البنايات الأخرى القريبة, منها دار(ريش – شمش/ Rish – shamash) ودار (ياشبو – أددو/Yashbu – addu) الذين مارسا التجارة بعيدة المدى (Long Distance Trade) مع شمالي بلاد الرافدين وسوريا.

وكما هو الحال في تخطيط القصر, تم تخطيط هذين الدارين المجاورين للمعبد على طراز البيت البابلي القديم حيث ضم كل منهما ساحة وسطية تحيطها غرف صغيرة, إحداها خصصت لخزن الفخار والأرشيف الخاص بالعائلة وخزن المؤونة , وهنالك مخازن غلال وتنانير. كما عثر في هذه البيوت على رقم طينية بابلية و أدوات من الطين المفخور وتماثيل صغيرة وابرمعمولة من العظام ودبابيس برونزية وخشاخيش الأطفال ونماذج لسفن صغيرة... في داخل وحدات البيوت المذكورة تم الكشف عن آنية منزلية مختلفة ودمى كلها معمولة من الفخار, كما عثرفيها على أختام إسطوانية ومكتبات خاصة أرختها البعثة الفرمسية بفترة العصر البابلي القديم (٨), هذا الطراز للبيوت البابلية إستمر في عمارة البيت العراقي حتى فترة الخمسينات من القرن الماضي .

يتقدم بوابة المعبد إثنان من تماثيل الأسود الحارسة , وهي معمولة من الفحار ومزينة بصبغات ذات أللون الأحمر والأسود والأبيض(٩). هذه التماثيل وجدت لها مثيلات في مدخل معبد الإلهين(خاني ونيسابا/ Khani and Nisaba) في تل حرمل, وهو المعبد الرئيس في الموقع, أي مدينة (شادوبم/ Shadupum) المعروفة من خلال النصوص المسمارية المكتشفة فيها, كما كشف عن بقايا لأسود مشابهة في موقع العوسية , الذي سيرد ذكره. تكرس هذه الأسود عادةً لحراسة مداخل المعابد البابلية , وهي تعد من سمات معابد العصر البابلي القديم (١٠) .

تم تصميم المعبد هو الآخر وفق طرازالبيت البابلي مع وحدات ملحقة به, عند البوابة أقيم جدارين بارزين لوضع تماثيل الأسود المذكورة على كلا

جانبي المدخل, حيث عثر على بقايا أحدهما مع ست جرار ورقم طينية في غرفة خزن خارج المعبد.

إضافةً لتلك المباني كشفت أعمال التنقيب عن ثلاثة بنايات تضم كل واحدة منها عرفة كبيرة وأخرى صغيرة خصصت كمشاغل لأصحاب الحرف (١١) .

تشير نصوص العصر البابلي القديم أنه في عام ١٧٦١ ق. م قام الملك البابلي حمورابي بتدمير مملكة ماري, بعد ذلك شيد الملك سمسو– ايلونا (١٧٤٩ – ١٧١٢ ق. م.) مركز إقامة صغير له في منطقة عانه ليبقى مأهولاً بالسكان فترة مائة عام , هذا المركز هو مدينة خرادم التي ارتبطت بشدة بمصير منطقة سوخو, الممتدة بين Tuttul (مدينة هيت) وبين Hindanum (مدينة الكرابلة), فهي لذلك تقع بين بلاد بابل وبين الآشوريين الذين تصدوا للبدو القادمين من جهة الغرب(بلاد الشام). فقد اطلق على هذه المنطقة اسم الآراميين بعد القرن (١١ ق.م.) وسمي الموقع آنذاك (خرادا/ Kharada), حيث شكل جزاً من النظام الدفاعي الآشوري .

بقيت منطقة (خرادا) خاضعة لسيطرة البدو منذ القدم وحتى عام (٦٠ ق. م.), وبقيت بعيدة عن مركز بابل ومركز سوريا بيد البدو الذين ينتمون الى عشيرة الجغايفه, حيث استمروا على بداوتهم سواءً في العراق أو سوريا, وبخاصة في منطقة ماري وتركوا قبوراً لهم هناك(١٢).

أصبحت سوخوم مقاطعة بابلية بعد احتلال ماري لها إبان حكم حمورابي وأسلافه, وإن تأسيس مدينة (خرادم) يعود إلى الثلث الأخير للقرن الثامن عشر ق. م .

تشير رسالة إحتجاج وجهت إلى حاكم المقاطعة المقيم في (يابليا) بأن سلطة مدنية وعسكرية تشرف على إدارة المدينة لكن أمنها بقي مهدداً من قبل المتمردين على مملكة ماري .

كما يشير مرسوم ملكي لاستيفاء الديون في عهد الملك(أمي صدوقا/Ammi – Saduq) (١٦٤٦– ١٦٢٦ ق.م.) إلى اسم سوخوم حينما أكد على أن تأخير إستأجار الحقول سوف لا يكون مشكلة.

وتشير الرقم المكتشفة بالمدينة إلى أنها تعود إلى عهد (سمسو– إيلونا/ Samsu – Iluna) (١٧٤٩ – ١٧١٢ ق.م.) و أمي– صدوقا(١٣). كذلك,

ظهر تأريخ المدينة على رقيم كبير عثر عليه في المقبرة العائدة للعصر الآشوري الحديث المكتشفة عند حافة الضلع الغربي للسور من الخارج عند المستوى(C/٣), ويعود تأريخ الرقيم إلى العام السادس والعشرين لعهد الملك سمسو إيلونا, وأن الرقيم الأكثر حداثة في تأريخه يعود إلى العامين الثامن عشر والتاسع عشر لحكم الملك أمي– صدوقا(١٤).

أما الجزء الأكبر من الرقم المكتشفة في داخل المدينة فقد وجدت في المستويين الفوقيين ويرجع تأريخها إلى عهد(أبي– إيشوخ/ Abi - eshuh) (١٧١١ – ١٦٨٤ ق.م.) و (أمي – ديتانا/ Ammi - ditana) (١٦٨٣ – ١٦٤٧ ق.م.) والملك أمي – صدوقا تقريباً .

تتوزع النصوص على مساكن معينة في المدينة, تم التعرف من خلالها على الساكن وأحياناً طبيعة عمله, وهي تحتوي بصورة خاصة على رسائل ووثائق قضائية وإدارية, كما يضم البعض منها قوائم توزيع البضائع, وقد وضعت هذه النصوص في أغلفة من الطين عليها طبعات أختام اسطوانية تعود لأصحاب الرقم المرسلة, كما يوجد على كل غلاف عنوان الشخص المرسلة إليه الرسالة (١٥) .

كانت المدينة تدار من قبل حاكم أو (عمدة / Rabianu) ومجلس شيوخ ظهرت الأسماء الشخصية لأعضائه في بعض النصوص المكتشفة هنا , وهي نصوص إقتصادية خاصة بالزراعة وتجارة الصوف والبضائع وتجارة العبيد . وكانت السفن التجارية ترسو عند الميناء أوالرصيف تعمل في مجال التجارة الداخلية بين المدن التي تقع على الفرات, كما شملت نشاطات المدينة في مجال التجارة الدولية بلاد آشور في الشرق ومدينة (إيمار/ Emar موقع مسكنه) في الغرب داخل الأراضي السورية.

كانت مدينة (خرادم) تحت حراسة حامية عسكرية صغيرة تتبع حاكم مدينة يابليا / إيابليا (Iyabliya / Yabliya) , وأنها كانت تدفع الجزية للملك البابلي . وإن معظم سكان مدينة (خرادم) كانوا يحملون أسماء آمورية غربية والباقي من هذه الأسماء كانت بابلية (١٦) .

وفي رأينا , أن مدينة(خرادم) تشكل نموذجاً لتخطيط المدن خلال العصر البابلي القديم .

فعلى الرغم من صغر مساحتها التي لا تتجاوز (١٥٠ x ١٥٠) متراً مربعاً, وكذلك صغرألحجم السكاني فيها, وضيق شوارعها, فإن وجود القصر أو دار العمدة، ووجود المعبد وطريقة توزيع المباني بشكلٍ منسق على جانبي شارعها الرئيس وعلى شوارعها الفرعية تعد مقومات أساسية للمراكز الحضرية (Urban Centers) .

يدعم ذلك ما أسفرت عنه النصوص المكتشفة في المدينة من معلومات مفيدة حول إقتصادها وتأريخها ونظام الإدارة فيها, فضلاً عن المعلومات الجديدة عن تأريخ بلاد سوخو.

كل ذلك يعد تعبيراً حياً عن التقدم الإجتماعي والتنظيمي على مستوى الإدارة, وصورة واضحة للرفاه الإقتصادي المتمثل في تخطيطها وعمارتها والفنون التي أظهرتها المواد الحضارية المكتشفة فيها.

وقد لا نكون مخطئين في تفسير(خرادم) بأنها كانت (مدينة للتجار) الأغنياء ومركزاً لإدارة أعمالهم. وهي سوق للقوافل التجارية المارة بها وكذلك السكان المحيطين بها من العاملين في زراعة السهل المجاور والرعاة .

يلي خربة الدينية باتحاه أسفل النهر جزيرة عانه التاريخية, فقد قامت هيئة تنقيب عراقية يرأسها السيد ناظرعبد الله الراوي بالكشف هنا عن بعض أللقى الأثرية ترجع في تأريخها إلى العصر البابلي القديم .

إلاّ أن أية مباني من هذا العصر ولسوء الحظ لم تصلنا بسبب تعاقب الإستيطان على أرض الجزيرة وقيام سكانها , كما لحظنا من خلال نتائج التنقيب في الجزيرة وفي مواقع التنقيب الأخرى بمشروع السد , باستخدام نفس قطع الأحجار الكلسية المرفوعة من هذه المباني لإقامة أدوار سكنى لاحقة, مما تسبب في إلحاق أضرار كبيرة بالمباني عبر الفترات التي عاشتها الجزيرة.

كما أن إرتفاع مستوى المياه الجوفية المتسربة من نهر الفرات إلى مستوىً أعلى من مستوى متبقي مباني العصر البابلي القديم هنا قد زاد من تلك الأضرار, وربما أدى ذلك إلى ضياع طبقات بنائية مهمة ثبت وجودها من خلال الدليل الآثاري في عموم حوض السد.

وفي مثال مشابه, فإن ما حصل من أضرار جسيمة لمباني العصر البابلي القديم في مدينة بابل التاريخية أدى إلى النتيجة ذاتها. إننا لا نعلم بالتحديد ما إذا كان السبب الحقيقي لذلك زيادات كبيرة في مناسيب مياه النهر خلال فترات متعددة من العصر المذكور أم تجاوزات سكان الأدوار التاريخية الاحقة ؟ ولا نستبعد الأسباب الجيولوجية المتعلقة بالتحركات تحت السطحية لمناطق وجود الموقعين المذكورين .

في موقع (سور جرعه) ألكائن أسفل جزيرة عانه بمسافة(٥ , ٢٥) كيلومتراً شمال غرب مدينة حديثة , وهو يبعدعن الشاطئ الشرقي للنهر نحو(٥٠٠) متراً, ربما يكون هذا الموقع نفس مدينة(Gabbari - DU) الآشورية(١٧).

كشفت تنقيبات هيئة عراقية ترأسها المرحوم الدكتور رياض عبد الرحمن الدوري هنا عن رقيم طيني يرجع في تأريخه إلى العصر الآشوري الحديث يفيد أن نينورتا – كودوري– أوصر(حوالي ٧٥٠ ق.م.) الذي حكم إقليم سوخو لمدة (٧) سنوات قد قام بحملة أعمال عمرانية, بينها إعمار لمبنى بيت الولائم (بيت- آكيتو / Bit –Akitu) في جزيرة عانه, مركز إقامة هذا الحاكم... في هذا المبنى تقام إحتفالات عيد رأس السنة البابلية, وهو يعد من المباني العامة المهمة التي عرفت بها المدن الرئيسة عند البابليين والآشوريين .

من الناحية التاريخية يمكن القول أن الإشارة إلى وجود بيت – آكيتو في جزيرة عانه توضح مدى حجم الدلالات المفقودة لعمارة العصر البابلي القديم في الجزيرة (١٨) .

يلي جزيرة عانه بإتجاه أسفل النهر موقعين مهمين يرجعان الى العصر البابلي القديم , هما (العوسية / Al - Usiya) و (الشويمية / Al – Shuweimiya) .

إجتمع هذين الموقعين على إحتوائهما على مدافن مشيدة قد تعود إلى القبائل شبه البدوية, أي القبائل الآمورية التي كانت تمسك بتجارة جميع منطقة الفرات الأوسط خلال العصر البابلي القديم, إلاّ أن قرائن لها لم تظهرفي بقية مواقع العصر البابلي القديم في حوض سد حديثة أو أي موقع معاصر لها في عموم القطر.

تشكل مدافن العوسية مدافن جماعية ترجع في تأريخها إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد (الشكل ٢) .

هذه المدافن كانت مغطاة بتلال اصطناعية أو ما يعرف بالتلال الكاذبة, وأن كل واحد من هذه المدافن يظهر بتخطيط مستطيل و تختلف بعضها عن البعض الآخر في الحجم والإتجاه . وبإستثناء القليل من مدافن العوسية ممن شيدت بالحجر المهندم فإن المدافن هنا , ومعها جميع مدافن الشويمية مبنية بمادة اللبن قياس القطعة منها (٣٦ x ٣٦ x ١٠) سنتيمتراً مربعاً وإن مداميكها تتدرج نحو الداخل (Corbelled) حيث تعلوها سقوف جملونية . إحتوت معظم هذه المدافن دكاك في الداخل ولها مداخل مغلقة مؤقتاً بقطع أللبن لغرض سهولة فتحها في حالات دفنٍ لاحقة.

هذا النوع من المدافن في الغالب محاط بسور دائري, أحدها ظهر في موقع العوسية وبداحله سور أصغر يحيط بأحد المدافن المذكورة (١٩).

إضافة لما ذكر, فإن أهمية موقع العوسية تتأتى من كونه يشكل مستوطناً كبيراً يغطي مساحة (٢*٥,.) كيلو متراً مربعاً .

ومن المعالم البارزة في هذا المستوطن تل اصطناعي بيضي الشكل شيد كبرج للمراقبة ولحراسة حصن يقع في ظله بإتجاه الشاطئ الغربي النهر, الأول يرجع في تأريخه الى أوائل الألف الأول قبل الميلاد(العصر الآشوري الحديث), والآخر تضمن لقى فخارية ترجع إلى العصر البابلي الوسيط (العصر الكشي) .

أظهرت التنقيبات في التل رقيماً طينياً يحمل أسماء أشخاص أعلام آمورية غربية مع لقى أخرى مختلفة بينها كسر تماثيل فخار لأسود مزينة بصبغات ذات لون أحمر وأسود , وهي جميعاً أرخت بفترة إيسن – لارسا(٢٠) . ويستدل من خلال بقايا الطبقة الكائنة تحت التل آنف الذكر أن المدافن الجماعية كانت تمتد حتى هذا الموضع من المستوطن قبل إقامة تلك المنشآت عليه (٢١) .

إن الأجزاء التي أشرنا إليها في موقع العوسية, تشكل قسمه الشمالي, حيث تم العمل فيه من قبل فريق عراقي للتنقيب برأسه السيد عبد الله أمين آغا.

إما قسمه الجنوبي فقد عملت فيه بعثة يابانية مشاركة موفدة من جامعة كوكوشيكان برآسة الأستاذ هيديو فوحي.

فعلى مسافة(٥٠٠) متراً جنوبي التل البيضي كشفت البعثة عن بقايا سلم وأرضية مطلية بالكلس (الجص), وقبالة هذا السلم عثر على أسدين معمولين من الفخار. وفي نقطة حفر تقع إلى الجنوب الشرقي من السلم ظهرت ساحة محاطة بأعمدة حجرية تقوم على قواعد مشيدة بنفس المادة رتبت على بعد ثلاثة أمتار عن بعضها البعض . إصطلحت البعثة اليابانية على نقطة التنقيب هذه تسمية (Area A) والتي زودتنا بلقى أثرية مختلفة تعود إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد (عصر إيسن – لارسا) بين هذه اللقى جرار فخارية اسطوانية البدن عملت زخارفها بشكل حزوز ملئت بمسحوقٍ كلسي أبيض اللون (٢٢) .

في السابق درج الآثاريون العراقيون على نسبة هذه الجرار الى فترة إيسن– لارسا, لكنها في الواقع ظهرت خلال تنقيبات لاحقة في مواقع سدي حديثة وحمرين بين آثار أرجعت الى نهاية العصر الأكدي.

ظهرت هذه الآنية لأول مرة بشكل قدور فخارية ذات فوهة عريضة وقاعدة أكبر منها قطراً ونسبت خطأً إلى فترة الإحتلال الكوتي(Gutian occupation) لجنوبي البلاد (٢٣) .

كما عثرت البعثة اليابانية في نفس نقطة العمل (Area A) على مجموعة من الأختام الاسطوانية أحدها يحمل اسم (Dagan - Tillat) وكتب بصيغة (Dagan - illat), وعثر على ختمِ إسطواني آخر عليه صورة ضريح مكون من خمسة طوابق فوقه صورة أسد تعلوه صورة هلال, ظهر التركيب البنائي المذكور على أحد الجرار الفخارية الإسطوانية المشار إليها أيضاً. كما زودت أعمال التنقيب هنا بعدد من بطات الوزن المعمولة من حجر الهيماتايت ودمى طينية آدمية وأخرى حيوانية كلها ترقى إلى العصر البابلي القديم .

ومن حلال هذا العرض السريع للقى الأثرية المكتشفة في نقطة التنقيب(Area A) بات واضحاً أن هذا الجزء من المستوطن كان ذو وظيفة دينية, ربما يشكل معبداً يرجع في بداياته إلى فترة إيسن– لارسا(٢٤) .

يعد مستوطن العوسية أكبر المواقع المكتشفة آثارها بالمنطقة, وبالتحديد حوض سد حديثة, وهو المستوطن الأثري الوحيد الكائن أسفل جزيرة عانه, ولأن هذا المستوطن يعد الأقرب إلى خربة الدينية, مدينة (Haradum) التاريخية بعد جزيرة عانه, فإنه في رأينا, الأولى أن يكون مدينة (يابليا / إيابليا Yablia / Iyabliya) التاريخية , صاحبة الحامية العسكرية الصغيرة المرسلة إلى مدينة (Haradum) لحراستها والدفاع عنها (٢٥) .

بعبارة أخرى, أنه ليس من المرجح أن تكون مدينة (يابليا) أسفل موقع العوسية, ولا يوجد في منطقة الدراسة موقعاً من العصر البابلي القديم يفصل بين العوسية وبين خربه الدينية (Haradum) سوى جزيرة عانه المعروفة اسماً طوال تأريخها .

أما الموقع المعروف بإسم (الشويمية /Shuwaimiya) - وهو تصغير لإسم الشامية الذي يطلقه أهالي المنطقة في الوقت الحاضر على عموم الجانب الغربي للفرات والمفتوح على أراضي بلاد الشام.

تقع الشويمية على مسافة (٢٤) كيلو متراً شمال غرب مدينة حديثة حيث لم تسفر التنقيبات فيه عن أي نوع للإستيطان رغم سعته وإحتوائه على ما يزيد عن ٢٠٠ قبر تتراوح فتراتها بين العصر البابلي القديم والآشوري الحديث, يبرز بينها (١٥) مدفناً مشيداً بقطع اللبن المعمولة بالقالب, وهي تعود إلى العصر البابلي القديم.

كما كشفت تنقيبات الشويمية عن وجود فخاريات تعود في تأريخها إلى العصر البابلي القديم, إلآ أن الصورة بدت أوضح في مدافن العوسية, فقد زودتنا المدافن الأخيرة بجرار وأواني من نوع (فخار الخابور) الرقيق مزينة بأشرطة ذات لون أحمر أو بني مع جرار وأوانٍ فخارية ترجع إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد (عصر إيسن-لارسا) (٢٦).

من ناحية أخرى, أوردت نصوص ترجع إلى العصر البابلي القديم اسم مدينة لا تزال غير معروفة بالتحديد وإرتبط تأريخها بمنطقة الفرات الأوسط , تلك هي مدينة (حربه /Harbe).

يفيد الباحثيون في الكتابات القديمة أن موضع هذه المدينة ومعها مدينة (يابليا / إيابليا Yablia / Iyabliya) يقع بين مدينتي هيت وعانه(٢٧) . وإذا كنا قد إقتربنا من تحديد مدينة يابليا وفق ما تقدم من دلالات أثرية, لابد

لنا إذن من محاولة تحديد المدينة الثانية (حربه/ Harbe) الكائنة أسفل من سابقتهالاسيما أنها ليست موقع (ألشويمية / Al - Shuimiya), وذلك حسب الدلالات الأثرية المتوفرة فيه كي نبرر احتمال كونه يمثل مدينة حربه.

وإذا صح ما ذهبنا إليه حول تحديد موضع مدينة يابليا, فليس من المنطقي أن تكون مدينة حربة قريبة إلى يابليا وهما مدينتان رئيستان في منطقة الفرات الأوسط فيما لو إفترضنا أن الشويمية هي حربة.. في رأينا أن هذه المدينة لابد أن تكون من المواقع الرئيسة في باقي منطقة الفرات الأسط, خصوصاً وأننا لانزال بين مدينتي هيت وعانة وهما معروفتان إسماً طوال تأريخهما.. إن ما ساعدنا في الخروج برأي جديد حول تحديد (حربة) هي التنقيبات الآثارية التي قادتها الهيئة العامة للآثار التراث في حوض سد البغدادي (الخارطة ٣) , فقد قدمت لنا موقعين مهمين, وهما (الجودفية) و (شيشين) لترشيحهما معاً أكثر من غيرهما ليكونا المدينة المعنية.

ضمن حوض سد البغدادي الذي أنشأ أسفل سد حديثة باتجاه مجرى النهر, تم التنقيب في الموقعين المذكورين الذين أرخا بفترة العصر البابلي القديم, أحدهما قائم على الجانب الغربي للنهر وهو (الجودفبة), الذي شكل مستوطناً كبيراً تتوزع أجزاءه على المرتفعات المطلة على قصبة ناحية البغدادي ألممتدة بشكل شريطي عند مقتربات مجرى الفرات, شأنها في ذلك شأن مواضع الاستيطان القديمة وكذلك المدن والقرى الحالية في منطقة الفرات الأوسط .

الموقع الآخر (شيشين) يقابل الجودفية ممتداً فوق المرتفعات المطلة على الجانب الشرقي للفرات على نحو كيلو متراً واحداً عند أعلى محور (الجودفية) (٢٨) .

الجودفية, في شكلها العام, منطقة منخفضة تحيط بها تلول متباينة الإرتفاع ومفتوحة من جهة الشرق على نهر الفرات شأنها في ذلك شأن العديد من القلاع البابلية والآشورية الممتدة على نهر الفرات في حوض سد حديثة(٢٩).. يشكل الموقع معسكراً أو قاعدة عسكرية تنم عن دراية تامة بطبيعة الأرض وتضاريسها المتباينة لتكون مكاناً مؤهلاً للقيادة العامة ومعسكراً رئيساً للحشود العسكرية, وأن نظاماً دفاعياً محكماً لتبادل

الإشارات والمعلومات الإستخبارية مع المعسكر الآخر عبر النهر(شيشين) لابد وأن أرسيت دعائمه هنا. فقد أظهرت التنقيبات الأثارية في الجودفية بناية رئيسة تضم وحدات تفصح عن وظيفتها العسكرية كحامية لإيواء الجند مع إحتوائها ساحات خالية ربما إتخذت للتدريبات(٣٠, الشكل ٣) .

ولأهمية منطقة الفرات الأسط لبلاد بابل وعموم منطقة سوخو , لابد أن تكون مدينتي (يابليا) و(حربة) تشكلان خطاً دفاعياً بابلياً متقدماً أمام الآشوريين وهجمات البدو الآراميين وأية قوة معادية.

موقع شيشين يقوم على مسافة (٥٠) كيلو متراً شمال مدينة هيت , مشيد فوق مرتفع صخري يعلو ما لا يزيد عن (٥٨) متراً عن مجرى النهر, وهو بيضي الشكل تقريباً, وبطول يقرب من (٣٠٠) متراً وعرض يتراوح بين (٤٠ – ٨٠) متراً (٣١).

يتكون الموقع من قسمين رئيسين, الأول يشكل مصطبة متدرجة الإرتفاع, ربما استخدمت كمرصد للمراقبة, والقسم الثاني يتضمن بقايا بنائية صممت بشكل الحاميات العسكرية.. أظهرت تنقيبات الطبقة الأولى بالموقع خلال الموسم الأول في عام ١٩٩٢ بقايا وحدات بنائية وبقايا سور دفاعي شيد باللبن قياس القطعة الواحدة منها (١١x٣٦x٣٦) سنتيمترا مربعاً, وهو ذو طلعات وأبراج كبيرة (٣٢, الشكل٣).

كشفت تنقيبات شيشين عن لقى أثرية مختلفة, بينها أختام إسطوانية وطبعات أختام على الفخار كلها ترجع إلى العصر البابلي القديم, المشاهد التي تظهر عليها متنوعة, منها من هي ذات طابع محلي يمثل صناعة منطقة الفرات الأوسط وأخرى وجدت لها مشابهات في جنوبي ووسط بلاد الرافدين, كما وجد البعض منها مشابهات في مدينة ماري ومواقع سورية, وفي مواقع أخرى في قبرص وكبدوكيا وبلاد الأناضول (٣٣).

كما أظهرت تنقيبات شيشين ألواح فخارية ذات مواضيع دينية وأخرى حربية, مثل الآلهة أو أبطال إسطوريين, ظهرت نسخ لها في الجودفية وفي موقع العوسية في سد حديثة (٣٤).. يلي هذه المدينة بإتجاه أسفل النهر مدينة (هيت), وهي مركز معروف لاستخراج القار والزفت حيث تضم اثنتا عشرة عيناً لهذه المواد الإنشائية التي لعبت دوراً كبيراً في حضارة وسط وجنوبي البلاد.. يلفظ اسم هيت بالغة السومرية (توتول / Tuttul), وفي الأكدية

سميت (إتو/Itu), وفي اللغة البابلية بإسم (إيتوم و إيدوم/ Idum، Itum).. من هذه المدينة التاريخية كان القار ينقل الى بلاد بابل بواسطة الزوارق, وتشير النصوص الأكدية أن الملك سرجون الأول (٢٣٥٠ق. م) قد قصدها بنفسه لتقديم القرابين في معبد شيد للإله (داكان/Dagan) باعتبار أن موضع هيت كان من مداخل العالم الأسفل, وذكرها الملك الآشوري توكولتي – نينورتا الثاني (٨٨٩ – ٨٨٤ ق.م.) حين خيم بالقرب من منابع القار فيها.

كما ورد إسم هيت في الكتابات اليونانية والرومانية, وفي كتب البلدانيين المسلمين- العرب.. وفي تأريخها الطويل إحتفضت المدينة بإسمها الذي هو عليه اليوم كما تشير الصيغ التي أوردتها النصوص القديمة (٣٥).

ومما لا ريب فيه أن توفر منابع القاروالزفت في هذه المدينة قد سمح لها أن تحتل مركزاً مهماً في مجال التجارة الداخلية خلال فترة العصر البابلي القديم, موضوع البحث, وأن تجمعاً سكانياً له إدارة تعنى بتنظيم شؤونه الاجتماعية والاقتصادية لابد أن يكون موجوداً هنا.

في السياق التاريخي لمنطقة الفرات الأوسط, أوردت نصوص العصر البابلي القديم ذكر مدينة (رابيقم/ Rapiqum), الميناء والمحطة التجارية على الفرات, وهي لا تزال غير مكتشفة على الرغم مما عرف أنها تقع في المنطقة بين الفلوجة ومدينة الرمادي, كبرى مدن محافظة الأنبار ومركزها الرئيس (٣٦). في فترات من تأريخها حكمها ملوك منها, وكانت جميع مدن الهضبة الغربية تابعة لإدارتها خلال فترة العصر البابلي القديم, وأحتلت من قبل مملكة أشنونا في عهد ملكها (إبق – أدد الثاني/ Ipiq –Adad 2) (٣٧) .

الخاتمة

إن ما كشفت عنه ألتنقيبات في مدينة (خرادم) هو تخطيط مديني منظم ووجود مجتمع ذا صفة تجارية وترأسه سلطة سياسية إضافةً لسلطة المعبد مما يدل على أهميتها الستراتيجية بالنسبة لبلاد بابل , وأن قربها من الموطن الأصلي للقبائل الآمورية في جبل البِشري (في سوريا) ربما كان الدافع الرئيس لتحويلها من محطة تجارية صغيرة على طريق قوافلهم التجارية إلى مركز حضري له مقومات المدينة , بما في ذلك إنشاء ميناء أو رصيف يستقبل السفن القادمة إليها أوالمارة بها.

ويبدو أن هذا التحول في نمط الإستيطان بالموقع قد جاء نتيجةً لما كان يجنيه هذا المستوطن من أرباح.

فبالإضافة الى إفادة المدينة من عائدات التجارة النهرية , فهي بلا شك كانت محط أنظار القوافل البرية المارة بها ذهاباً وإياباً بين موطنهم الأصلي وبين بقية أرجاء بلاد الرافدين, بل وحتى مناطق الخليج والجزيرة العربية في رحلات تجارية مكوكية.

وبالمقابل لابد أن رجال مقاتلين من أهالي المدينة كانوا يشكلون إسناداً لرجال حامية الحراسة المنسبة هنا من قبل حاكم (يابليا / إيابليا) لتأمين سلامة القوافل التجارية القاصدة إليها أو المارة بها من خطر هجمات القبائل البدوية المنتشرة في الصحراء المحيطة بالطريق التجاري... وهي بالتأكيد كانت تؤمن كل التسهيلات الازمة لإقامة تلك القوافل بالجوار أو الذين يدخلون إليها للتزود بالمؤن والاحتياجات الضرورية, هذا إضافةً لإيواء ركاب السفن الراسية عند مينائها .

إن وجود المباني والمواد الحضارية الكثيرة والمتنوعة في موقع العوسية, وكذلك في مستوطن الجودفية وشيشين, قد شجعت للإعتقاد بأنهما مدينتي (يابليا و حربة), يدعم هذا الرأي سعتهما قياساً بمواقع العصر البابلي القديم في عموم منطقة الفرات الأوسط كدليل قد يكون واضحاً لوجود كثافة سكانية عالية فيهما.

كانت مدينة يابليا مركزاً حضرياً له جيشه القوي الذي خرج في نطاق مسؤولياته الدفاعية عن حدود أراضيه ليمتد إلى خرادم للذود عنها .

من ناحية أخرى تفيد أللقى الأثرية المتنوعة في موقعي الجودفية وشيشين بأن علاقات تجارية وسياسية كانت تربطهما مع الخارج.. هذه الصلات الحضارية لا تتوفر إلاّ لمدينة واسعة, مثلتها المنشآت العسكرية الضخمة التي تشرف على أراضٍ زراعية تمتد مع الشواطئ الطويلة لنهر الفرات في ناحية البغدادي.

إن أبرز مثال لهذا المصدر الغذائي المهم هو القوس النهري الذي يبلغ طوله نحو (١١) كيلو متراً من الأراضي الزراعية التي غذت سكان عانة في العصر البابلي القديم .

بقي هنا أن نتسائل, أليس لنا أن نحدد مستوطن الجودفية وشيشين الذي فصلت أجزاءه الواسعة طبيعة الأرض في المنطقة, كما هو الحال في عانة, ونقول أنها مدينة حربة التاريخية ؟

مدينة هيت, ومثلها جزيرة عانه , معرو فة تأريخاً وموقعاً وإسماً, إما رابيقم نأمل أن تصلها يد المنقبين لتنضم إلى الموكب الحضاري الزاهر في منطقة الفرات الأوسط بدءاً من مدينة (خرادم / Haradm) وحتى (رابيقم / Rabiqum) لتقول للعالم أن أي منطقة في عموم البلاد تشكل سفرا طويلاً في قصة الحضارة الإنسانية .

الهوامش

(١) أنظر : الخارطة ١ والخارطة ٢:

Abdul – Amir , Sabah Jasim

Archaeological Survey of Ancient Settlements and Irrigation Systems in the Middle Euphrates Region of Mesopotamia, Chicago: The University of Chicago, (Unpublished Ph.D Dissertation) , 1988: fig. 1: 2, fig.8 : 120 .

(٢) قائمة بمواقع العصر البابلي القديم في حوض سد حديثة. أنظر:

Abdul - Amir 1988 : 340 .

مواقع غربي النهر	الرقم في المصدر المذكور
خربة الدينية	١٢
العوسية	٩
الشويمية	٥٠
جزيرة عانة	٢٢
مواقع شرقي النهر	
الزاوية	١٧
الولادية	٣٤
العمرية	٣٥

المردادية ٣٦
الدينية ٣٨
البجارية ٤٨

(٣)

ibid : 47 , ff . ;

محمد , أحمد كامل
"دراسة أولية للنصوص المسمارية من موقع شيشين", سومر, مج ٤٩, ج ١-٢, بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة, ١٩٩٧– ١٩٩٨: ١٣ – ١٤.

(٤) كبنسكي, كرستينا وأوليفيه لي كونت, (ترجمة د. مؤيد عباس عبد الحسن)
" قلعة على ضفاف نهر الفرات في المنطقة المتاخمة لحدود بابل وآشور", سومر, المحلد ٤٥ , ج ١– ٢, الموصل: دار الكتاب للطباعة والنشر, ١٩٨٧– ١٩٨٨: ٢٩١ , ٢٩٧ .

(٥) الشكل ١ : Abdul – Amir , 1988 , fig 35 : 203
(٦) كبنسكي , المصدر السابق : ٢٩٢ .
(٧) المصدر السابق : ٢٩٢ – ٢٩٣ , ٢٩٦ .
(٨) المصدر السابق : ٢٩٣, ٢٩٦ .
(٩) المصدر السابق : ٢٩٣ .

(10) Baqir , Taha
" Tell Harmal : A Preliminary Report : , Sumer 2 , No, 2 , 1949 : 23 – 24 .

(11) Abdul – Amir , 1988 : 202

كبنسكي , المصدر السابق : ٢٩٣.
(١٢) كبنسكي , المصدر السابق : ٢٩١ – ٢٩٢.
(١٣) كبنسكي : المصدر السابق
(١٤) كبنسكي , المصدر السابق : ٢٩٥.
(١٥) كبنسكي , المصدر السابق : ٢٩٦ .
(١٦) كيبنسكي , المصدر السابق : ٢٩٧ ؛ وأنظر :
Abdul – Amir , 1988 : 50 – 52 .

(17) ibid : 216 .
(18) ibid : fig 30 : 184 , 185 .
(19) ibid : 59 .
(20) ibid : 185 - 186 .Killick , Robert and Michael Roaf
" Excavations in Iraq 1981 – 82 " , Iraq 45 , 1983 : 199 – 225.

(21) Abdul – Amir , 1988 : 185 .
(22) Ibid : 180 – 189 .
(٢٣) سعيد , مؤيد
" الفخار منذ عصر فجر السلالات حتى نهاية العصر البابلي القديم " , حضارة العراق , الجزء الثالث , بغداد : دار الحرية للطباعة , ١٩٨٥ : ٣٩ ــ ٤٠ .
(24) Abdul – Amir , 1988 : 189 .
(25) Ibid : 51 – 52 ;
وأظر: محمد , المصدر السابق : ١٤ .
(26) Abdul – Amir , 1988 : 185 , fi g. 32 : 187 .
(٢٧) أنظر : محمد . ١٩٩٧ ــ ١٩٩٨ : ١٥
(٢٨) محمد , المصدر السابق : ١٤ ــ ١٥ ؛
الأعظمي , محمد طه محمد
الأسوار والتحصينات الدفاعية في العمارة العراقية القديمة, (أطروحة دكتوراه غير منشورة), بغداد , ١٩٩٢: ٢٧٤ ــ ٢٧٦ , والشكل ٥٩.
(٢٩) راجع :
Abdul – Amir , 1988 .Chapter 5 : 166 – 315
(٣٠) الأعظمي , المصدر السابق : ٢٧٤ ــ ٢٧٦ , والشكل ٥٨) .
(٣١) الأعظمي , المصدر السابق : الشكل ٥٩ أ , ب , ج).
(٣٢) محمد , المصدر السابق : ١٣ ؛ الأعظمي , المصدر السابق : ٢٧٦ ــ ٢٧٧.
(٣٣) رميض , صلاح سلمان, وعبد الرزاق , ريا محسن
" دراسة تحليلية لاختام موقع شيشين , الموسم الأول في عام ١٩٩٢ , سومر , مج ٤٧ , ١٩٩٥ : ١٤ ــ ١٧.
(٣٤) رميض , صلاح سلمان , و عبد الرزاق , ريا محسن
" ألواح فخارية من موقع شيشين " , سومر , مج ٥٠ , ج ١ ــ ٢ , بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة , ١٩٩٩ ــ ٢٠٠٠ : ٨٨ ــ ٩٠.
(٣٥) سعيد , مؤيد وآخرون
الدليل الإداري للجمهورية العراقية , ج١ , ط ١ , بغداد : طبع الدار العربية ١٩٨٩ ــ ١٩٩٠ : ٤٠٠ ــ ٤٠١
(36) Beitzel , Barry , 1984 : 36 – 37 ;.
وحول تأريخ رابيقم أنظر : رميض , صلاح سلمان
" رابيقم مدينة بابلية من الألف الثاني ق.م. : أهميتها – وموقعها " , سومر , المجلد ٥٢ , ج١-٢ , ٢٠٠٣ ــ ٢٠٠٤ : ٤٥٣ ــ ٤٥٦ .
(37) Abdul – Amir , 1988 : 52 – 53 .

وأنظر : ديضر المصدر السابق

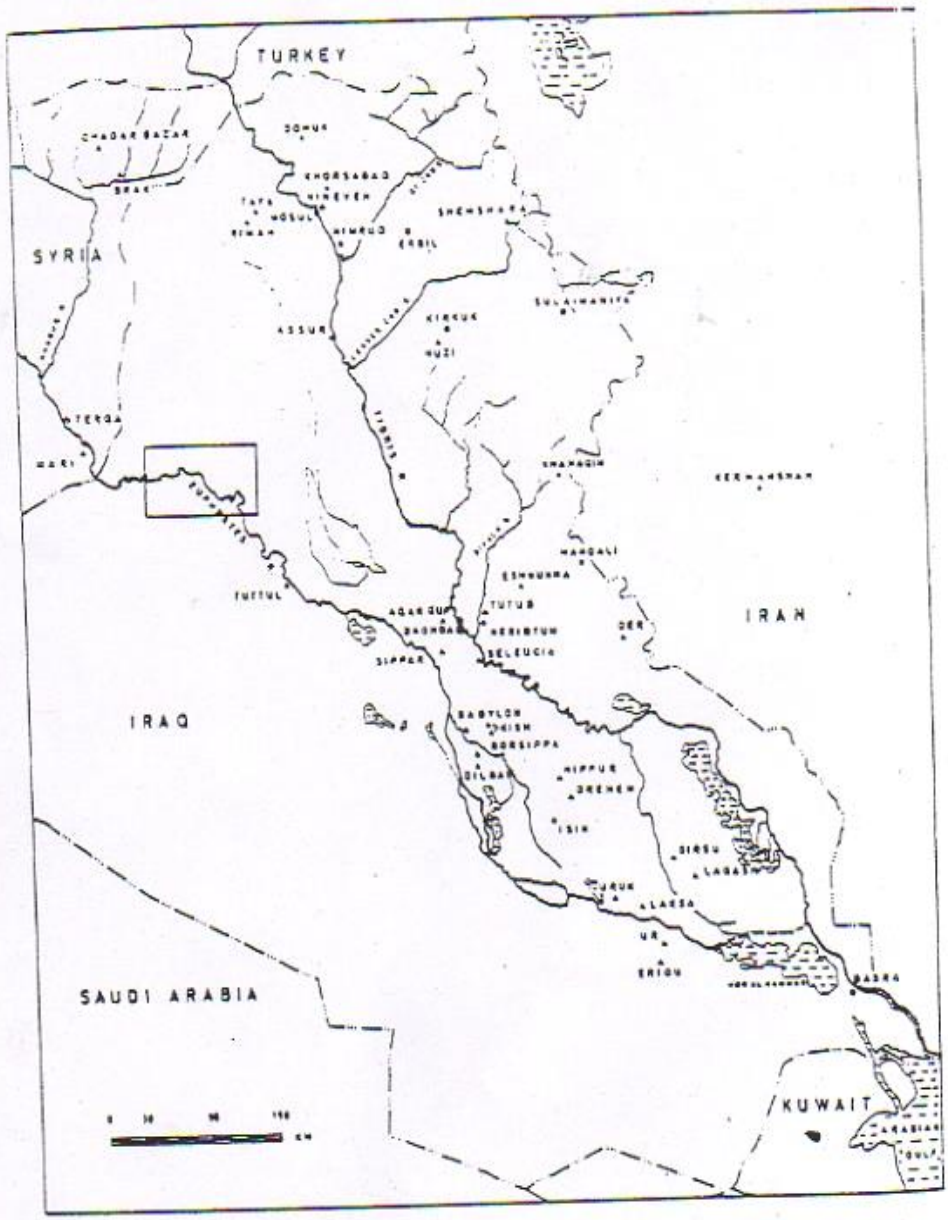

Figure 1. Location Map of the Middle Euphrates
(After Oates 1986:1)

الخارطة (1)
Abdul-Amir, 1988

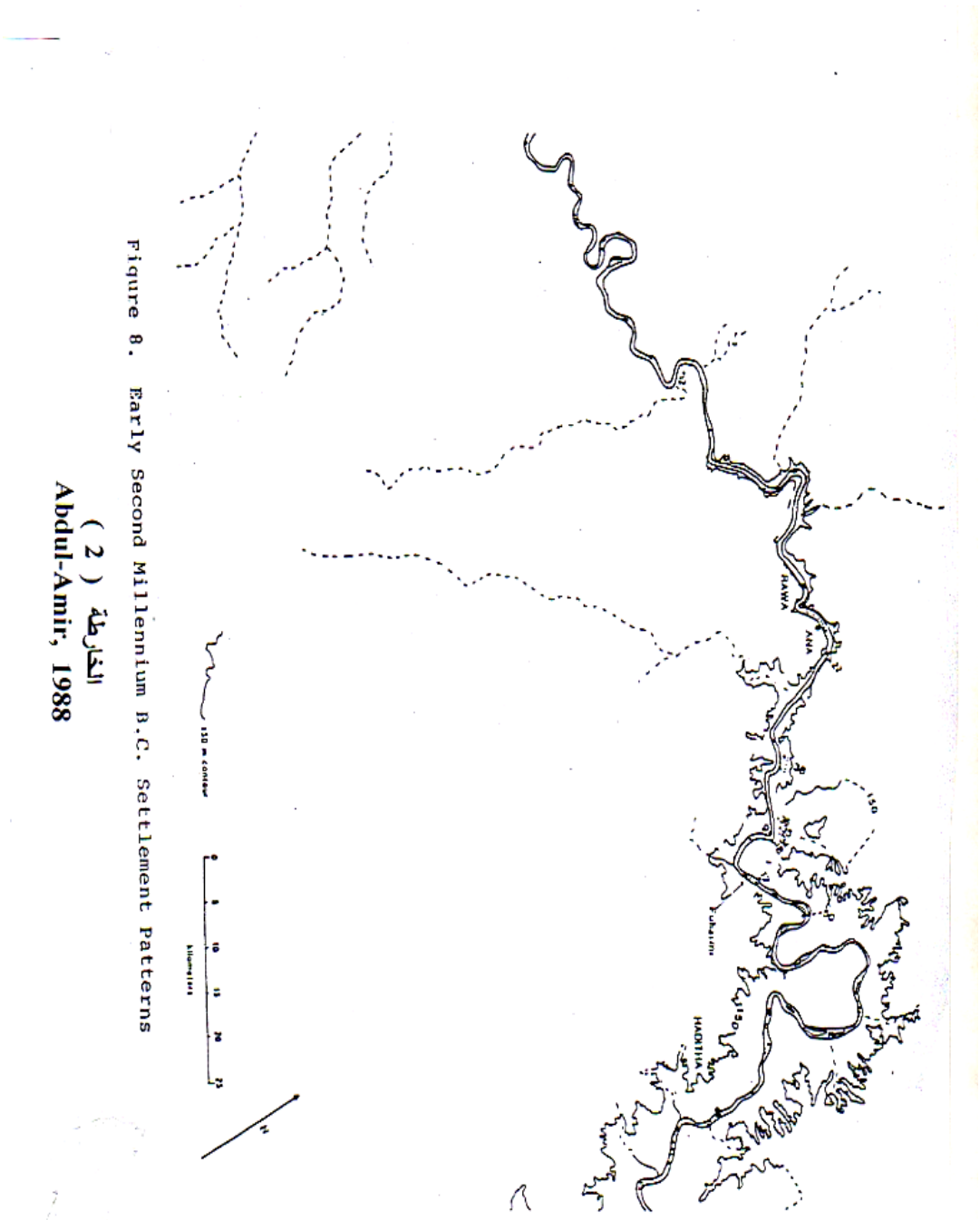

Figure 8. Early Second Millennium B.C. Settlement Patterns

الخارطة (2)

Abdul-Amir, 1988

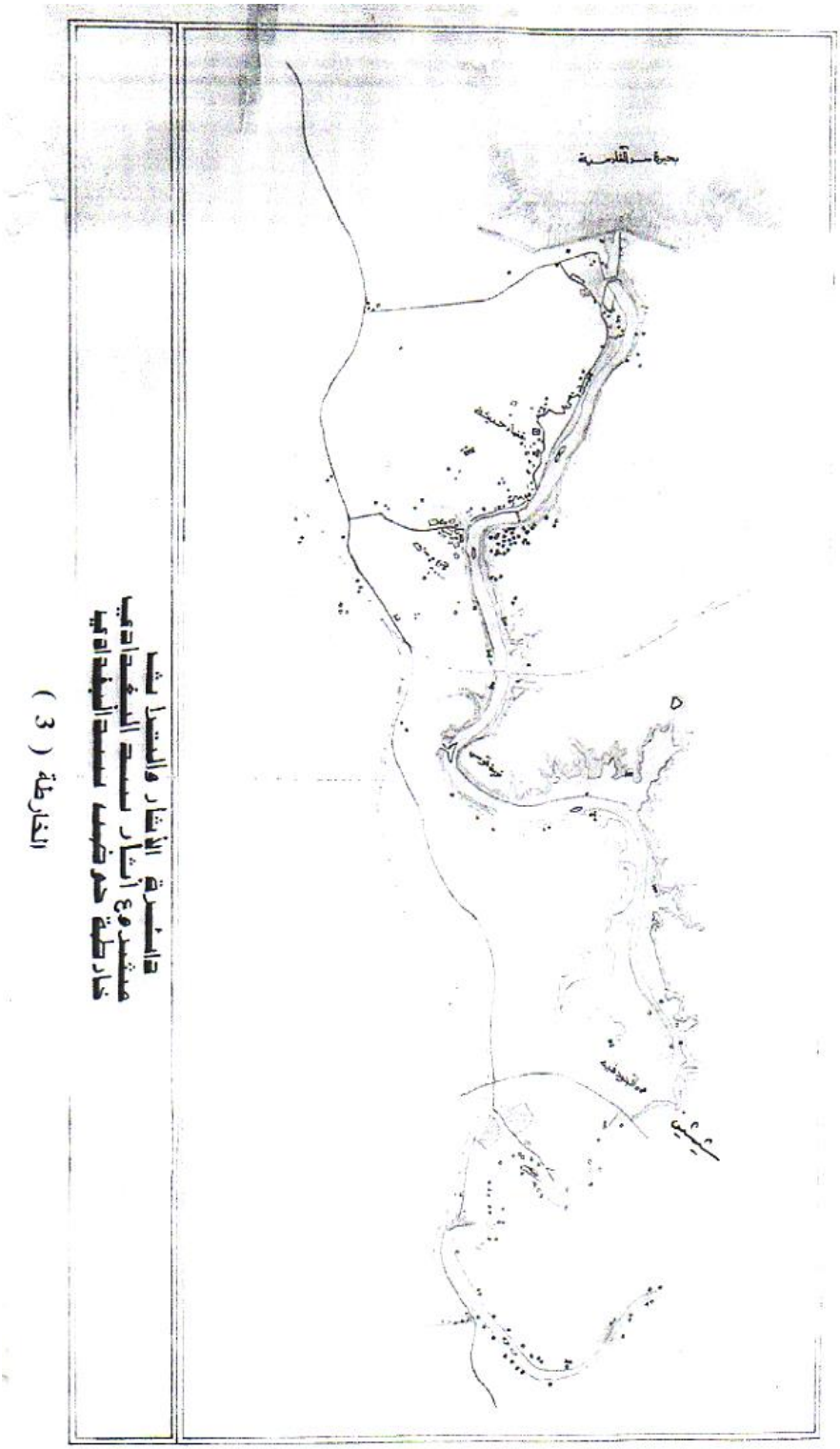

الخارطة (3)
قاعدة الاشعار والمتابعة
مشروع اشعار بسبة المبيدات في
خارطة حوض بسبة الميدانية

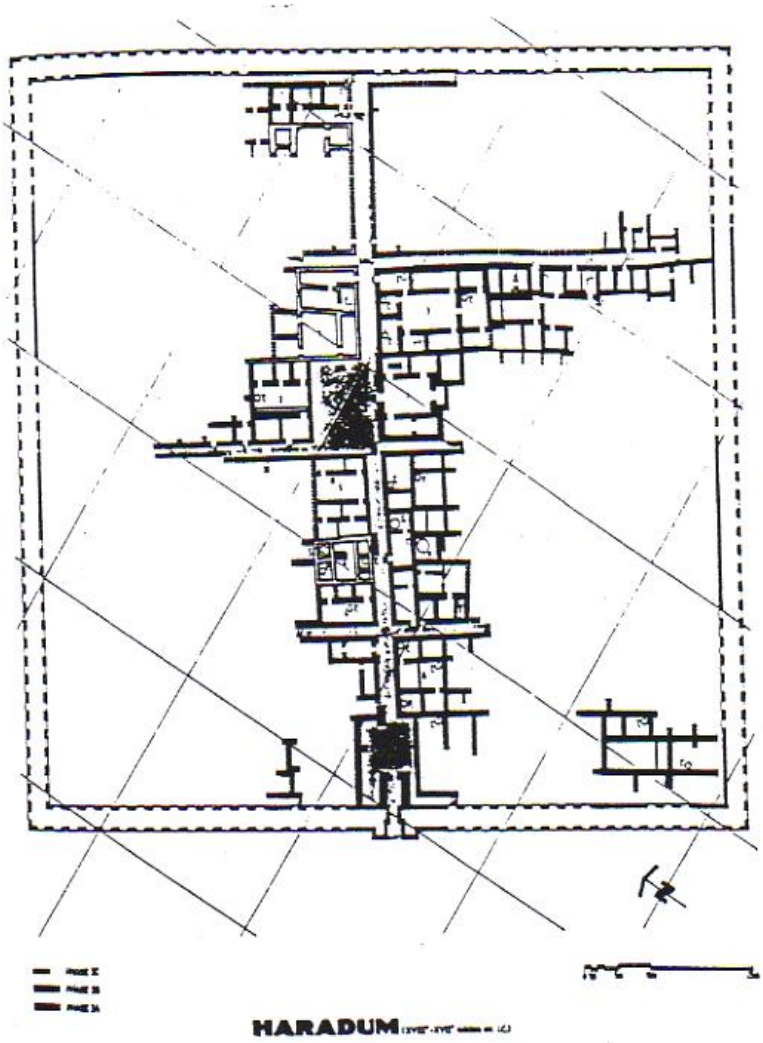

Figure 35. Plan of Khirbet Al-Diniya
(After Kepinski and Lecomte 1985)

الشكل (1)
Abdul-Amir , 1988

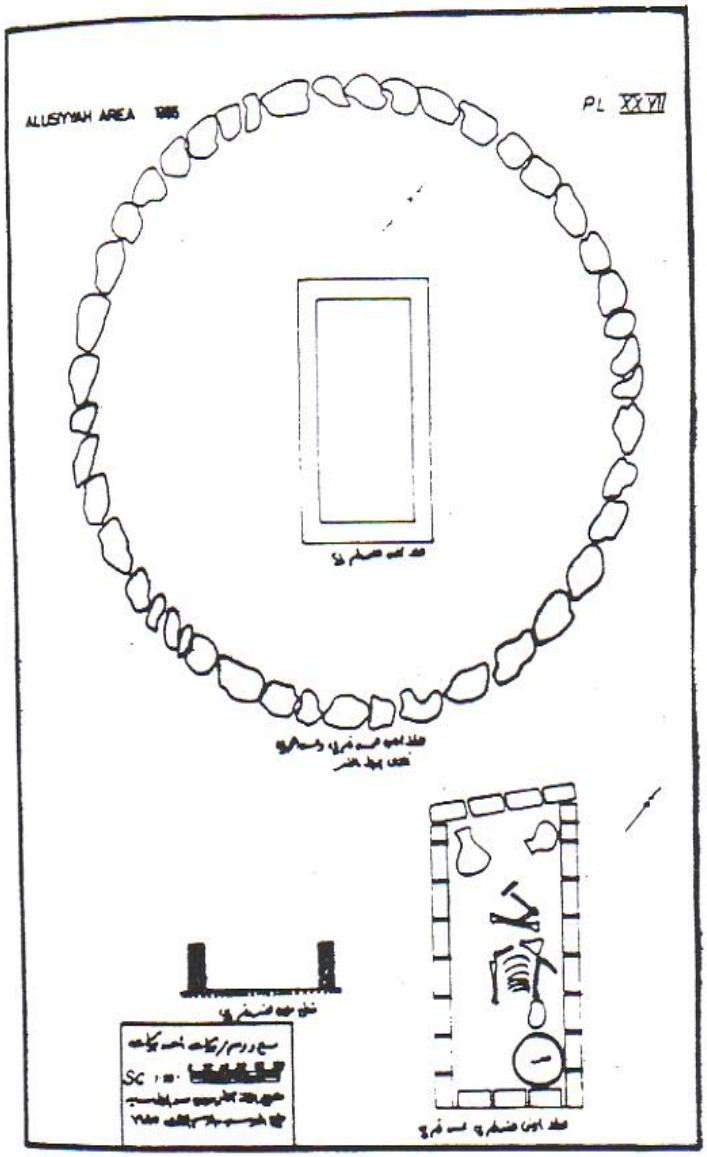

Figure 30. Early Second Millennium B.C. Group Burial at Al-'Usiya

الشكل (2)
Abdul-Amir , 1988

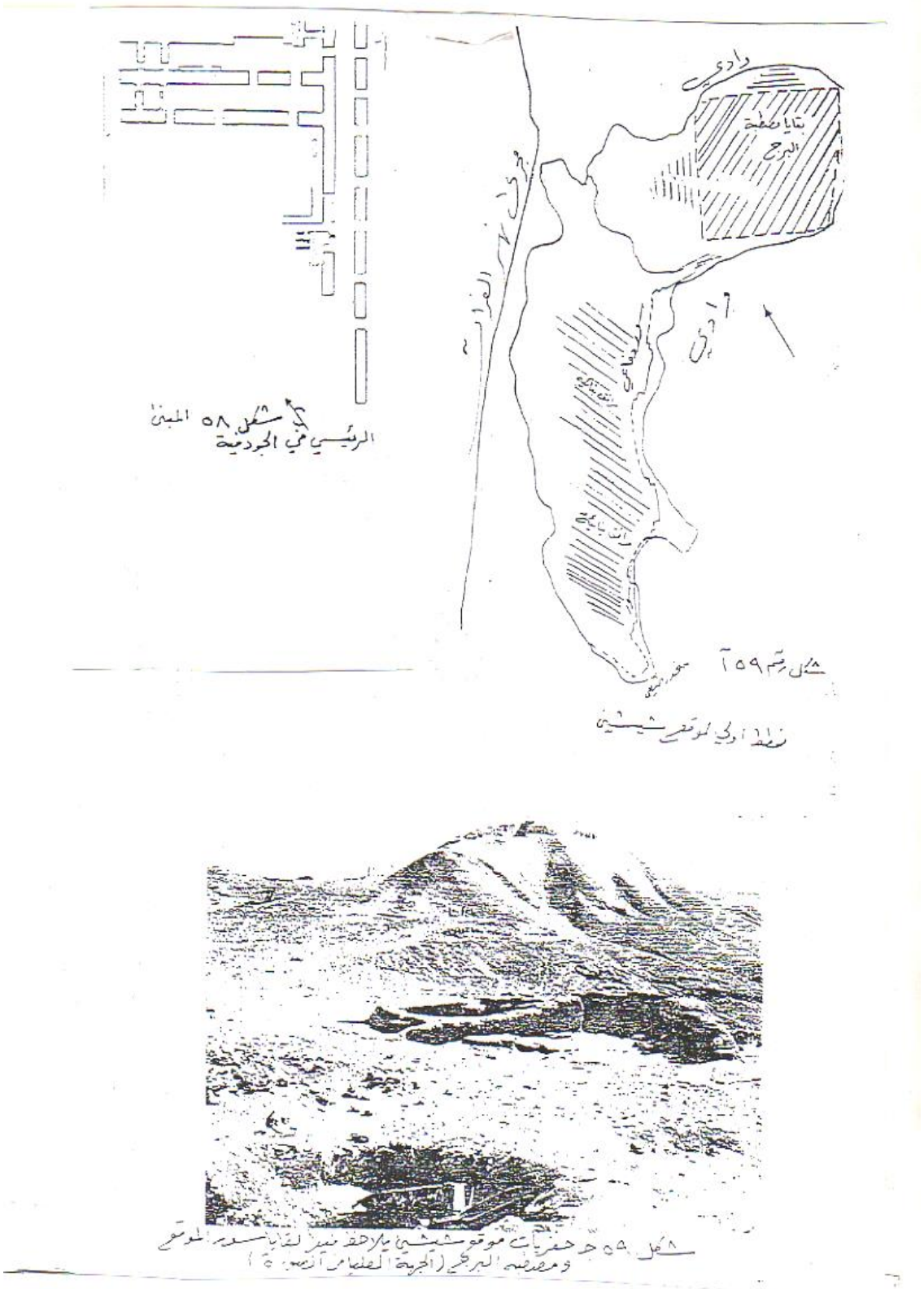

الشكل (3)
الاعظمي , 1992